فَتَاةٌ مِنَ القُدْس

إِكْرَامُ ابْنَةُ قَرْيَةٍ مَقْدِسِيَّةٍ قَدِيمَةٍ مُحْتَلَّةٍ ...

جَدُّهَا مَسْعودٌ لَمْ يَنْزَحْ مِنْ قَرْيَتِهِ قَبْلَ سَنَواتٍ طَوِيلَةٍ ، رَغْمَ أَنَّهُمْ طَرَدوهُ مِنْ بَيْتِهِ وَأَرْضِهِ ..

فَضَّلَ أَنْ يَبْقَى يَفْلَحُ تُرابَهُ وَيَزْرَعُهُ .. وَإِنْ كَانَ يَخْدُمُ مَنِ اغْتَصَبَ بَيْتَهُ وَبُسْتانَهُ فَقَدْ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّهُ لا يَخْدُمُهُ هُوَ ، بَلْ يَخْدُمُ الأَرْضَ الَّتِي يُحِبُّها .. وَيَعْرِفُ كُلَّ حَبَّةِ رَمْلٍ فِيْها.

لَمْ يَكُنْ جَدُّ إِكْرَامَ يَفْهَمُ بِالسِّياسَةِ وَلا بِالعَسْكَرِ .. كَانَ مُتَدَيِّناً

بَسِيطَاً ، صَحِيحٌ أَنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَيَصومُ وَيَحْفَظُ آياتٍ كَثِيرةٍ مِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ .. لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ إِلا بِالزَّرْعِ وَالحَصَادِ .. وَبِالرَّغْمِ مِنْ مَعِيشَتِهِ الصَّعْبَةِ .. وَمَا ذَاقَهُ مِنَ المُحْتَلِّيْنَ مِنْ آلامٍ وَجِراحٍ .. رَضِيَ العَيْشَ فِي خِدْمَةِ المُحْتَلِّ وَلَوْ دونَ بَيْتٍ .. فَهُوَ يُفَضِّلُ النَّوْمَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجارِهِ الَّتِي زَرَعَها بِيَدَيْهِ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ وَيَعِيشَ فِي قَصْرٍ مِنَ القُصُورِ ..

الفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ إِكْرَامُ لَمْ تَعْرِفْ جَدَّهَا إِلَّا بِسَماعِ قَصَصٍ عَنْه .. اسْتُشْهِدَ قَبْلَ وِلادَتِها بِأَعْوامٍ .. لَمْ يُقْتَلْ فِي مَعْرَكَةٍ ضِدَّ

الـمُحْتَـلِّ ، وَلا فِي تَـظَاهُرَةٍ أَوْ حَتَّى مُـجَرَّدَ اعْتِراضٍ ...

قَتَلَهُ ابْنُ مُغْتَصِبِ أَرْضِهِ الَّتِي وَرِثَها عَنْ أَجْدَادِهِ ..

قَـتَلَهُ الصَّبِيُّ بَعْدَ أَنْ أَهْداهُ أَبوهُ بُـنْدُقِـيَّةً جَدِيدَةً بِمُنَاسَبَةِ بُلوغِهِ العَاشِرَةَ مِنْ عُمُرِهِ ..

أَرادَ الصَّبِيُّ أَنْ يُـجَرِّبَ بُنْدُقِـيَّـتَهُ الـجَدِيدَةَ .. وَبَدَلاً مِنْ أَنْ يُـجَرِّبَـها عَلَى عُصْفورٍ أَوْ فَأْرٍ أَوْ حَتَّى صَرْصَارٍ ؛ صَوَّبَ بُنْدُقِـيَّـتَهُ نَحْوَ قَلْبِ الـجَدِّ مَسْعُودٍ .. كَانَ مَسْعُودُ يَفْلَحُ الأَرْضَ وَيَسْقِيها عَرَقَهُ .. رَفَعَ مَسْعودٌ مِعْوَلَهُ إِلى الأَعْلَى ؛ لِيَهْوِيَ بِهِ نُزولاً يَشُقُّ

الأَرْضَ .. فَاجَأَتْهُ طَلْقَةُ البُنْدُقِيَّةِ في قَلْبِهِ مُباشَرَةً ..

تَعْرِفُ إِكْرامُ قَبْرَ جَدِّها .. تَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ عوداً أَخْضَرَ تَغْرِسُهُ في تُرابِ القَبْرِ ..

تَقْرَأُ الفَاتِحَةَ وَتَدْعو لَهُ وَلِنَفْسِهَا وَلأُسْرَتِهَا .. ثُمَّ تُغَادِرُ كَمَا جَاءَتْ وَعَلَى كَتِفِها شَنْطَةُ المَدْرَسَةِ ..

وَالِدُ إِكْرَامَ يَحْمِلُ جِنْسِيَّةَ المُحْتَلِّ غَصْباً عَنْهُ.. لَمْ يَكُنْ أَمامَهُ خِيَارٌ : إِمَّا الإِذْعانُ ، أَو الرَّحِيلُ ..

جَدَّتُها (أَرْمَلَةُ مَسْعودٍ) رَفَضَتِ الاثْنَيْنِ .. حَبَسَتْ نَفْسَها في كُوخِ مُتَهالِكٍ ، قَرَّرَتِ الـمَوْتَ في قَرْيَتِها ؛ لِتُدْفَنَ قُرْبَ زَوْجِها الشَّهِيدِ .. عَاشَتِ الأُسْرَةُ حَياةً بَسِيطَةً جِدّاً ، في حَيٍّ تُـحِيطُ بِهِ مَساكِنُ الـمُحْتَلِّينَ كَالسِّوارِ بِالـمِعْصَمِ .. لَـمْ تَكُنْ إِكْرَامُ تَعْرِفُ الكَرَاهِيَةَ .. كَانَتْ مِثْلَ جَدِّها مُولَعَةً بِالأَرْضِ . فِي مَدْرَسَتِها طَالِباتٌ كَثِيراتٌ يُشْبِهْنَها تَـماماً .. لِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ قِصَصٌ تَـحْكِيها... هُنَّ يَشْعُرْنَ أَنَّـهُنَّ أَسْعَدُ حَظّاً مِنْ

نَظِيراتِـهِنَّ البَناتِ اللَّاتِي بِمِثْلِ سِنِّهِنَّ وَيَعِشْنَ خَارِجَ الوَطَنِ ، أَوْ تَـحْتَ قَصْفِ الاحْتِلالِ وإِرْهابِهِ في مَا تَبَقَّى مِنْ وَطَنٍ ..

كَانَتْ هِيَ أَيْضاً تَظُنُّ أَنَّـها مَـحْظوظَةٌ لِبَقَائِها في أَرْضِ الوَطَنِ ، بَلْ أَكْثَرُ حَظّاً ؛ لأَنَّـها قَرِيبَةٌ من قَبْرِ جَدِّها وَتَسْكُنُ داخِلَ قَرْيَتِها الَّتِي كَانَتْ .. هِيَ تَذْهَبُ إِلى الـمَدْرَسَةِ ، وَهُنَّ قَدْ لا يَذْهَبْنَ ، وَيَعِشْنَ ظُروفاً قَاسِيَةً..

هِيَ تَعِيْشُ في أَمانٍ مُصْطَنَعٍ .. وَهُنَّ يَعِشْنَ في سَاحاتِ الدَّمِ ... لَكِنَّها لَـمْ تَشْعُرْ بِالأَمْنِ التَّامِّ ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ عَرَبِيّاً فَهُوَ حَذِرٌ عَلَى

الدَّوام ... تَـفَتَّحَتْ إِكْرَامُ عَلى هَذَا الـمَشْهَدِ ..

أَقْصَى مَكَانٍ تَذْهَبُ إِلَيْهِ هُوَ الـمَدْرَسَةُ فِي الصَّبَاحِ وَالعَوْدَةُ إِلى البَيْتِ ظُهْراً ..

تَـحْرِصُ عَلَى الذَّهَابِ وَالعَوْدَةِ مُسْرِعَةً ..

تُـهَرْوِلُ جَنْبَ الـحَائِطِ وَتَدْخُلُ البَيْتَ وَلا تَـخْرُجُ إِلا عِنْدَ الضَّرورَةِ ، وَأَحْياناً تَذْهَبُ إِلى جَارَتِـها مَرْيَمَ الَّتِي تَسْكُنُ الـحَيَّ نَفْسَهُ ؛ لِتُراجِعَ لَـهَا دُروسَها وَتَشْرَحَ لَـهَا مَا صَعُبَ عَلَيْها فِي دِراسَتِها ...

وَمَرْيَمُ فِي الـحَقِيقَةِ لَيْسَتْ مُدَرِّسَةً .. لَـمْ تَكُنْ تَعْمَلُ فِي مَدْرَسَةٍ وَلَـمْ تَكُنْ تَعْمَلُ أَبَداً ..

حَاوَلَتْ مِراراً أَنْ تَـجِدَ عَمَلاً ، لَكِنْ مَاذا تَفْعَلُ بِأَطْمـاعِ أَصْحابِ العَمَلِ ؟؟

عِنْدَما كَانَتْ تَقولُ لَـهُمْ : عَيْبٌ عَيْبٌ .. يَضْحَكُونَ وَيَطْرُدونَـها قائِلِينَ بِلُكْنَةٍ عَرَبِيَّةٍ سَخِيفَةٍ : (هَا هَا.. رُوْحْ حَبِيْبِي رُوْحْ ... دَوِّرْلَكْ مَكَانْ تَانِي).

لِذَلِكَ قَعَدَتْ مَرْيَمُ فِي البَيْتِ تُعَلِّمُ أَبْنَاءَ الـحَيِّ وَبَناتهُ .. تُعْطِيهِمْ دُروسَاً خُصُوصِيَّةً مُقابِلَ أَجْرٍ زَهِيدٍ .. لَكِنَّهُ يَبْقَى أَفْضَلَ بِمَلْيُونِ مَرَّةً مِنْ مُوافَقَةِ أَصْحابِ العَمَلِ هَؤُلاءِ عَلَى طَلَباتِـهِمْ ..

فِي الـمَسَاءِ .. وَقُبَيْلَ نَوْمِهَا .. تَفْتَحُ إِكْرَامُ نَافِذَتَـها الصَّغِيرَةَ ، تَـتَمَدَّدُ عَلَى السَّرِيْرِ ، تَرْمِي بِبَصَرِهَا إِلى السَّمـاءِ تَـتَأَمَّلُ النُّجُومَ الـمُنْتَشِرَةَ مِثْلَ حَبَّاتِ لُؤْلُؤٍ حَوْلَ القَمَرِ ...

حَيُّ إِكْرَام لا يَنْعُمُ بِالأَمْنِ التَّامِّ مِثْلَ سَائِرِ الأَحْياءِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ ... تُشَكِّلُ تِلْكَ الأَحْياءُ حَالَةَ رُعْبٍ .. لَمْ يَكُنْ يَمُرُّ يَوْمٌ دُوْنَ أَنْ يَعْبَثَ أَحَدٌ بِالحَيِّ .. زُجاجٌ يَتَطايَرُ .. سَيَّاراتٌ تُضْرَبُ بِالحِجَارَةِ .. بُيُوتٌ تَتَعَرَّضُ لِلسَّطْوِ ... طِفْلٌ يُشَجُّ رَأْسُهُ بِضَرْبَةِ عَصَا ... القَمَرُ وَحْدَهُ صَدِيقُ إِكْرَامٍ ... لَيْسَ هُنالِكَ أَصْدِقاءُ ... أَبَواهَا مَشْغولانِ عَلَى الدَّوَامِ ... جَدَّتُها الكَبِيرَةُ بِالسِّنِّ لا تَسْتَطِيعُ الكَلامَ وَغالِباً مَا تَكُونُ نائِمَةً ..

أَبُوهَا وَأُمُّها يَعْمَلانِ عِنْدَ تَاجِرٍ مُحْتَلٍّ ... يَعْمَلانِ عِنْدَهُ مِثْلَ عَبْدَيْنِ طَائِعَيْنِ ، وَلا يَسْتَطِيعانِ الاعْتِراضَ ... فَالجِنْسِيَّةُ الوَهْمِيَّةُ لا تُؤَمِّنُ أَيَّةَ حِمَايَةٍ ...

أَذْعَنَا لِلْوَاقِعِ كَيْلا يَكُونَ مَصِيرُهُما مِثْلَ جَدِّها المِسْكِينِ ، أَوِ الرَّحِيلَ..

لَمْ تَكُنْ إِكْرَامُ تَجِدُ مُسَلِّياً غَيْرَ القَمَرِ ...تَبْحَثُ فِي المَسَاءِ عَنْ إِذَاعَاتٍ عَرَبِيَّةٍ وَمَحَطَّاتٍ عَرَبِيَّةٍ ، لَكِنَّهَا تَخْفِضُ الصَّوْتَ كَيْلا يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الخَارِجِ ... تُرَاقِبُ حَيَاةَ أَطْفَالِ العَرَبِ .. كَيْفَ

يَسْمَعُ أَحَدٌ في الـخَارِجِ ... تُراقِبُ حَياةَ أَطْفالِ العَرَبِ .. كَيْفَ يَعِيشُونَ وَكَيْفَ يَنْعَمُونَ ...ثُمَّ تَنْظُرُ إِلى الْقَمَرِ .. تَـحْلُمُ بِالـحَياةِ وَلِلْحَياةِ ... ثُمَّ تُغْلِقُ عَيْـنَـيْهَا وَتَـنَامُ عَلَى حُلْمٍ جَدِيدٍ ..

وَفي عَصْرِ يَوْمٍ يَسْبِقُ امْتِحاناً مَدْرَسِيّاً مُهِمّـاً .. ذَهَبَتْ إِكْرَامُ إِلَى مَرْيَمَ ..تَأَخَّرَتْ إِكْرَامُ في بَيْتِ مَرْيَمَ .. كَانَتِ الدُّرُوسُ كَثِيرَةً وَتَـحْتَاجُ إِلَى شَرْحٍ ...مَضَى الوَقْتُ بِسُرْعَةٍ ... لَـمْ تَـنْتَبِهْ إِكْرَامُ إِلَّا بَعْدَ مُضِيِّ وَقْتٍ طَوِيلٍ ... بَقِيَتْ إِكْرَامُ في مَنْزِلِ مَرْيَمَ حَتَّى

غَرَبَتِ الشَّمْسُ ..وَلَـمْ تَكُنْ تَـتَأَخَّرُ يَوْماً .رَجَتْهَا مَرْيَمُ أَنْ تَبْقَى عِنْدَهَا اللَّيْلَةَ .. خَافَتْ عَلَى أَبَوَيْـها .. سَتَبْكِي أُمُّها إِنْ لَـمْ تَعُدْ إِلَى البَيْتِ ... سَتَظُنُّ أَنَّ عِصَابَةً خَطَفَتْها ...

وَمَا أَكْثَرَ مِثْلَ هَذِهِ العِصَابَاتِ ...

خَافَتْ مِنْ أَنْ يَخْرُجَ أَبُوها وَأُمُّها لِلْبَحْثِ عَنْها فَتُؤْذِيهِما تِلْكَ العِصَاباتُ .. قَرَّرَتِ الخُرُوجَ فَوْراً ، وَالسَّيْرَ قُربَ الحَائِطِ عَلَى الطَّرَفِ الثَّاني حَتَّى تَرَاهَا مَرْيَمُ إِلى أَنْ تَصِلَ إِلى البَيْتِ ..

الكَهْرُبَاءُ مَقْطُوعَةٌ عَنِ الحَيِّ مِثْلَ العَادَةِ ...

قَالَتْ لَهَا : خُذِيْ هَذِهِ الشَّمْعَةَ لِتُنِيرَ لَكِ الطَّرِيقَ ...

قَالَتْ الطِّفْلَةُ : لا أُرِيدُ شَمْعَةً .. مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ أَمْشِيَ فِي الظَّلامِ كَيْلا يَرَانِي أَحَدٌ ..

أَصَرَّتْ مَرْيَمُ .. خَشِيَتْ أَنْ تَصْدُمَها سَيَّارَةٌ في الظُّلْمَةِ .. أَنْ تَقَعَ في حُفْرَةٍ .. وَمَا أَكْثَرَ الـحُفَرَ في الـحَيِّ ...

أَخَذَتِ الطِّفْلَةُ الشَّمْعَةَ بِحَذَرٍ ..

سَارَتْ مُسْرِعَةً نَحْوَ الرَّصِيفِ قُرْبَ الـحائِطِ عَلَى الـجَانِبِ الآخَرِ مِنَ الطَّرِيقِ لِتَـتَمَكَّنَ مَرْيَمُ مِنْ رُؤْيَتِها حَتَّى وُصولِـها البَيْتَ ... كَانَتْ مَرْيَمُ خَائِفَةً .. كَانَتْ إِكْرَامُ خَائِفَةً ...

الظَّلامُ تَـشُقُّـهُ شَمْعَةٌ ؟ لَـمْ تَـعُدْ مَرْيَمُ تَرَى فِي الظَّلامِ غَيْرَ نُورٍ ضَئِيلٍ يَـتَحَرَّكُ قُرْبَ الـحَائِطِ ... رَأَتْ ضَوْءَ سَيَّارَةٍ مُسْرِعَةٍ ...

سَمِعَتْ صَوتاً مُرْعِباً .. سَمِعَتْ صُرَاخَ طِفْلَةٍ ..

وَزَعِيقَ إِطَارَاتِ سَيَّارَةٍ ..

وَمِنْ ذَلِكَ اليَوْمِ لَـمْ يَعُدْ أَبْنَاءُ الـحَيِّ يُضِيئُونَ شَمْعاً بِلَيْلٍ ...

*****